مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الجِنِّ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الجن

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الجن

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ ﴾

أوضحت سورة الجن أنهم عالم مُكَلَّفُون، وأن منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وأنهم مثابون على الطاعة، ومعاقبون على المعصية، وأن نفراً منهم قد استمعوا إلى القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، فتأثروا، وآمنوا. وقد انطلقت السورة بأمر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يُبَلِّغ الناس بما كان من شأن الجن الذين استمعوا القرآن وصدَّقُوا به. فقال تعالى ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُبَلِّغ الناس أن الله تعالى قد صرف إليه نفراً من الجن، يستمعون ما أَنزل اللهُ تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن. كما ورد ذلك أيضاً في سورة الأحقاف من قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم بما كان من الجن، قبل أن يخبره الله تعالى بما أوحى إليه من شأنهم. وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره عن قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي: قل يا محمد لأمتك: أوحَى اللهُ تعالى إليَّ على لسان جبريل ﴿ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ ﴾ إليَّ ﴿ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ أي: وما كان عليه الصلاة والسلام عالم به قبل أن أُوحِي إليه. هكذا قال ابن عباس وغيره. أن ظاهر القرآن يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يرهم، لقوله تعالى ﴿ ٱسۡتَمَعَ ﴾ وعن ابن عباس: ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن

وما رآهم[١] ولذلك جاء الأمر من الله تعالى بالإخبار بشأن ما كان من الجن. وفي هذا إثبات أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا بما يُعَلِّمُهُ ربه تبارك وتعالى.

وقد حددت الآية الكريمة أنهم نفر من الجن ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: عدداً معدوداً. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: النفر: الجماعة من واحد إلى عشرة[٢] ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم بما دار بين الجن الذين استمعوا إليه وبين قومهم. فلذلك جاء الأمر بأن يقول للناس ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وقد ورد أن هؤلاء النفر من الجن قد استمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم وهو عامدٌ إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. مما يبين دقة البيان في دلالة ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فإنها تحقق دقة معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان من شأن الجن بما أوحى الله تعالى إليه. وذكر القرطبي عن الحسن البصري رحمهم الله تعالى: أنه قيل: أن الجن ولَد إبليس، والإنس ولَدُ آدم. ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون. وهم شركاء في الثواب والعقاب[٣]

وفي هذا الإبلاغ من الله تعالى ما تتحقق به مقاصد وغايات عظيمة، والتي منها: أن عالم الجن المختلف عن عالم الإنس آمنوا وصدقوا بما هو خارج عن عالمهم، بسبب ما أدركوه من أن هذا القرآن العظيم هو كلام الله تعالى، وليس من كلام غيره. وبالتالي فأين أنتم أيها المكذبون من الإنس من تصديق الجن بالقرآن؟ بل قالوا عنه لقومهم عندما رجعوا إليهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فمن شدة إعجابهم أن وصفوه بما يفيد الذهول من قوة بلاغته، وبيانه ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فأسموه باسمه الذي سماه الله تعالى به ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا﴾ ومن شدة إعجابهم أن وصفوه بما يفيد الذهول من قوة بلاغته، وبيانه، ومضامين هدايته، وأحكامه وغاياته. فقالوا عنه ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فقد أعطت دلالة ﴿عَجَبٗا﴾ قوة التعجب والانبهار بهذا القرآن العظيم. فهي دلالة لا حدود لها في الوصف. فهو محل تعجب في هدايته، وفي مواعظه، وأحكامه، وتشريعه، وفصاحته، وبلاغته، وبركته، وغير ذلك من أوصاف القرآن العظيم. فكيف يكفر ويكذب به الإنسان،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٨٩/١٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٩)

وكيف إذا كان الإنسان عربياً، يُدرك قوة بيانه الإعجاز في هذا القرآن العظيم. إن في هذا تحفيز للإنسان بأن لا يكون الجن أفضل منه، وهو المعني به أصلاً.

مما يفيد أن المؤمنين من الجن خير من كفار الإنس. كما يدل على قوة العناية والاهتمام بما استمعوا من القرآن العظيم. وبما يفيد أن أول طريق معرفة الحق هو الاستماع بوعي وانتباه، لأجل إدراك الحق، وليس بنية التشويش والمحاربة، كما فعل المعاندون من المشركين. فإن للنية والهدف والغاية أثر على الاهتداء. وهذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُرسل كذلك إلى عالم الجن، إي: إلى الثقلين الإنس والجن. ولذلك بعث الله تعالى نفراً من الجن يستمعون القرآن. وفي كون هؤلاء النفر من الجن عادوا إلى قومهم منذرين، مما يدل على أنهم أدركوا بأن هناك حساب وجزاء.

ومن مزيد الفوائد أن الجن قد انصرفوا مباشرة إلى قومهم محذرين قومهم من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما معه من القرآن العظيم. بما يؤكد أن النفر من الجن قد آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الكريم، واستجابوا لما فيه من الأمر والنهي. وقد أفاد إنذارهم لقومهم: أنكم إن لم تؤمنوا فلكم عذاب شديد. كما أفاد هذا الإنذار بالنسبة للمشركين من الناس: أنكم إن لم تؤمنوا أيها المعاندون من المشركين فقد آمنت الجن برسوله صلى الله عليه وسلم، واستمعت للقرآن فصدقت وآمنت به. فأين عقولكم؟ فهل الجن خير منكم؟ والرسول من جنسكم، وقد آمن به مَن ليس من جنسكم، ليحمل التوبيخ، مع الحث على التعقل، فلا تكن الجن خير منكم في قبول الحق الذي أنتم معنيون به. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده من الجن والإنس، ليرشدهم إلى نجاتهم، وإلى الفوز بالفلاح بدلاً من العذاب المقيم.

ثم استمر السياق القرآني الكريم في بيان وصف الجن للقرآن بالمدح والثناء، فقالوا ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ إن هذا القرآن العظيم الذي هو مثار تعجبنا، فإنه يهدي، ويُرشد، ويدل على طريق الحق، الذي يرشد به مَن اتبعه إلى مصالح الدنيا، والفوز بالآخرة. فدلالة ﴿ٱلرُّشْدِ﴾ قد استوعبت الخير والصواب والهدى، والفوز والسداد، لما فيه من الإيمان، وتوحيد الله تعالى، والأحكام التي تضبط حياة وتصرفات الإنسان، والأخلاق التي ترتقي بالعباد، والأعمال الصالحة من العبادات وغيرها التي يصل بها العباد إلى الجنة في الآخرة، والتوفيق والسداد في الدنيا.

ثم يقررون بأنهم آمنوا وصدقوا ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ فآمنا بالقرآن العظيم، وما يستوجب من الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. والامتثال والطاعة. ثم أكدوا إيمانهم بنفيهم للشرك بالله تعالى. فقالوا ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لن نكون من أهل الشرك أبداً. فقد أكدوا قوة إيمانهم وتصديقهم بنفي الشرك من

تلك الساعة التي استمعوا فيها للقرآن العظيم، مع عدم العودة إليه فيما هو قادم. حيث ورود النفي بصيغة المستقبل ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لن يحصل منا الشرك في قادم أمرنا.

بما يفيد قوة العزيمة النابعة من قوة التصديق والإيمان، وذلك لقوة تأثير القرآن العظيم عليهم. فقد ورد البيان بأداة النفي ﴿وَلَن﴾ فأظهروا قوة عزيمتهم بدلالة النفي القاطع ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ ولا أي أحد مهما بلغ من الوصف. فليس هناك رب وإله نعبده إلا الله تبارك وتعالى. مما يفيد فاعتبروا أيها الناس بعالم الجن.

ثم أخذوا يُمَجِّدُون ويُعَظِّمُون الله سبحانه وتعالى، فقالوا ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالت وتقدست عظمة ربنا عَزَّ وجل. فقولهم ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ أي: تعاظم ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: جلال ربنا وعظمته وسلطانه وأمره. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: فِعْلُهُ وأَمْرُهُ وقدرتُه. وعن عكرمة، ومجاهد رحمهم الله تعالى: جلال ربنا. وعن قتادة رحمه الله تعالى: جلاله وعظمته وأمره[١] فهي جامعة للإجلال والتعظيم لله تعالى.

واستدلوا بهذه العظمة لله تعالى أنه عَزَّ وجل ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فنفوا عن الله تعالى مزاعم من قال أن لله تعالى ولداً أو زوجة. لأن هذا يتعارض مع عظيم سلطانه سبحانه وتعالى، وغناه ورفعته من أن يكون له ولد أو زوجة، وهو الغني الْمُغني، والمعطي، والذي له ملكوت كل شيء عَزَّ وجل. مما يبين أن الشواهد دلائل على الغائب بالقياس. فهذا الخلْق للكون كله يدل على الدقة والعظمة وقوة القدرة والسلطان لله تعالى، فلا حاجة له للولد، ولا للصاحبة. وكذلك استوجب الإيمان بالغيب كله. فهو نفي قاطع من الجن من أن يكون لله تعالى حاجة لغيره أبداً، سواء كان من الولد أو الزوجة. وقبلها كان نفيهم للشريك.

ثم يذكرون ما كان من سفائهم من القول الكذب، الذي بلغ حده من الافتراء. فقالوا ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أنه كان يقول ﴿سَفِيهُنَا﴾ وهو كل من خالف الحق، وعَمِد إلى الباطل، فتشمل جميع كفارهم ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ والشطط هو: الكذب، وعموم الباطل الذي لا يليق بعزة الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى عن ابن زيد رحمه الله تعالى في دلالة ﴿شَطَطًا﴾ أي: ظلماً كبيرا. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم ﴿سَفِيهُنَا﴾ اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا[٢]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣١٢-٣١٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٥٧)

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج، وقتادة. وقيل: المشركون من الجن، قال قتادة: عصاه سفيه الجن، كما عصاه سفيه الإنس. والشطط والاشتطاط: الغلو في الكفر[1] مما يفيد أنهم بفضل اهتدائهم، وتوفيق الله تعالى قد استطاعوا تفنيد الباطل، ومعرفته بالدلائل التي أظهرها القرآن الكريم، فعرفوا ما عليه قومهم من الكفر. وبما يؤكد أن من سمع القرآن بفهم فإنه يدرك به الحق من الباطل، ويؤمن بالغيب قياساً على عظيم خلق وتدبير الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير جَلَّ جلاله.

وبهذا القرآن الذي استمعوا إليه من الرسول صلى الله عليه وسلم قد تصححت مفاهيمهم، واستقامت أحكامهم، وأزالوا ما كانوا عليه من الجهل والكفر، فقالوا عن ماضي فهمهم ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ لقد اعتقدنا أن جنس الإنس، وجنس الجن لن يكذبوا على الله تعالى. فكنا نعتقد بأنهم صادقين فيما يقولون لنا من أن لله تعالى صاحبة، وأن له ولد. بما يفيد أننا قد كنا في جهل، فاتبعناهم من غير حجة ولا دليل. بما يبين أن العلم بالله تعالى وبكل شيء هو بضابط الدليل، ووفق البرهان والحجة من العلم، وليس بناء على ما يدَّعِيه الكبراء والسادة الجهال. وأن واجب العباد هو الأخذ بالدليل والبرهان. وأن القرآن هو أساس الدين، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنة المطهرة.

ثم يذكرون ما يحصل بين بعض الجن وبعض الإنس من التواصل، فقالوا ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ فإنه كان رجال من الإنس يستجيرون ويلتجؤون برجال من الجن عند حصول المخاوف، وغيرها ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي: فزادوهم بهذه الاستعانة خوفاً. فاستثمر الجن هذا الضعف عند الإنس، فزادوهم خوفاً، إلى أن بلغ بهم درجة الإرهاق، حتى جعلوهم مطاوعين لهم. أي مطاوعين للجن فيما يأمرونهم ويزينون لهم من الكفر والمعصية، وما يطلبون منهم من القربات، والذبح لغير الله تعالى. مما يبين أن هذا الالتجاء من بعض الإنس برجال من الجن قد ألحق بهم الهلاك الذي جعل الجن تتجرأ عليهم، وتتمكن منهم، ومن تطويعهم لمرادهم. وهذا يبين أن استضعاف الإنس للجن يجعلهم يتصرفون فيهم بالإذلال الذي يرهقهم بالتخوف منهم، والطاعة لهم.

مما يبين أن من استعان واستجار بغير الله تعالى، فقد مَكَّن نفسه من غيره، كالسحرة والمشعوذين، وكل من ذهب إليهم. فدلالة كلامهم تفيد: الاستغراب والدهشة من هذا التصرف السيء من الإنس. ليبين مدى أثر الجهل على الجاهل. وأن هذا الدين يُعَلِّم العباد طريق الحق والرشاد. كما أفاد البيان الكريم أن عالم الجن كعالم الإنس، فمنهم رجال ومنهم النساء ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/١٩)

ثم يستمر استنكارهم لِمَا كانوا عليه قبل إسلامهم، فقالوا ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ وأن الجن اعتقدوا كما اعتقد الكفرة من الإنس من أن الله تعالى لا يبعث من يموت للحساب والجزاء. وبالتالي ينكرون هذا الاعتقاد الباطل، المنافي للحق، ولعظمة تدبير الله تعالى وسلطانه، وكمال قدرته على البعث والحساب والجزاء بالجنة للمطيع، وبالنار للعاصي. مما يبين ثمرة الإيمان على المؤمن من الجن والإنس، فإنه يهدي ويرشد المؤمن إلى الهدى، ويُبعده عن الضلال.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾

ثم تُخبر الجن بما كان من شأنهم مع السماء، فقال تعالى عنهم: أنهم قالوا ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ فيقول هؤلاء النفر من الجن بأنهم التمسوا وطلبوا بلوغ السماء وأرجائها فوجدوها على غير العادة التي ألفوها، أي: أن هناك حدث جديد، قد تغيرت به حال السماء ﴿ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ فقد امتلأت بالملائكة التي تحرسها. وقد وصفوا هذا الحرس بأنه ﴿ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أي: قد بلغت قوة هؤلاء الحرس كمال الشدة التي منعت الجن من استراق السمع، بل وهناك نوع آخر من الحراسة الشديدة، وهي الشُّهُب ﴿ وَشُهُبًا ﴾ وهو النجم المضيء، وورد بصيغة الجمع، ليفيد كثرة النجوم التي ترجم الشياطين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر الله تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له، أن السماء مُلِئت حرساً شديداً، وحُفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك. لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتمس الأمر، ويختلط، ولا يدري مَن الصادق. وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز[١] مما بين عظيم حفظ الله تعالى للقرآن الكريم، فقد حفظه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٥٨/٤)

جَلَّ جلاله أثناء نزوله، وعند نزوله، وبعد نزوله، وإلى يوم القيامة. ليتبين من هذا الحفظ أنه آية وحجة ظاهرة واضحة لكل من يريد الحق.

ثم ذكرت الجن حالهم مع السماء قبل وجود هذا الحرس العظيم ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي: أننا قبل وجود هذا الحرس الشديد ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ ﴾ فقد كنا نجلس جلوساً في أمكنة منها، بما يفيد ملازمتهم لتلك الأمكنة، من أجل ﴿ لِلسَّمْعِ ﴾ ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء، فيذهبون بها إلى الكهنة. فحرسها الله تعالى بالملائكة، وتلك الشهب التي تحرقهم، بانقضاض الكواكب المحرقة والهالكة عليهم. مما يبين عظمة مُلك وتدبير الله تعالى. وأن الله تعالى خص الجن بخصائص انفردوا بها عن عالم الإنس. ولله تعالى كمال الحكمة في ذلك. بما يبين أن الله عَزَّ وجل يخلق ما يشاء، ويعطي لعباده ما يشاء، ويختص من يشاء بما يشاء. بما يبين كمال قدرة وسلطان الله عَزَّ وجل التي تستوجب توحيده، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالغيب الذي يؤكده بهذا الخلق من الجن الذين لا يراهم الإنس على حقيقتهم، وهم يرون الإنس.

ثم ذكرت الجن أنهم بعد هذا الحكم من الله تعالى، فقد تغيرت أحوالهم فيما يخص شأن السماء ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ فإن من يحاول الآن استراق السمع ﴿ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ يجد الشهاب الذي يترصدهم، فيحرق من يحاول مجاوزة ما لا يجوز الارتقاء إليه. مما يفيد عظمة هذه البعثة النبوية، التي تغيرت بسببها أحوال الجن، وقدراتهم. فقد أفاد كلام الجن أنهم قبل البعثة النبوية كانت لهم مقاعد للسمع، ثم بعد بعثته صلى الله عليه وسلم مُنِعوا من ذلك، فقد اكتظت السماء بالحرس من الملائكة، وبالشهب التي تترصد من يحاول استراق السمع، فتحرقه بالانقضاض عليه. فإن دلالة ﴿ ٱلْـَٔانَ ﴾ من قوله تعالى ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ ﴾ دليل على اختلاف الوضع عما كانوا عليه من قبل ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ ﴾ أي: فمن يحاول أن يستمع الآن ﴿ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ يجد الشهاب الذي يترصدهم، فيحرق من يحاول مجاوزة ما لا يجوز الارتقاء إليه. كما دلت دلالة ﴿ رَّصَدًا ﴾ دقة وقوة الحراسة. إذ أنها تقوم بعملية الرصد في المتابعة بقوة، بحيث لا يستطيع أن يفوت أحد من الجن أبداً إلى تلك المقاعد. وفي ذلك بيان لكمال قدرة الله تعالى، وأن كل شيء هو جُندٌ لله تعالى، يسخره كيف يشاء.

ثم تُخبر الجن عن جهلها بسبب هذا المنع، فيقولون ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ أي: لا نعلم سبب وعلة هذا المنع ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ هل هناك شر من العذاب أراده الله تعالى لأهل الأرض بهذا المنع لنا ﴿ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ أو أن الله تعالى أراد بأهل الأرض خيراً. مما يبين قصور علم الجن، وأنهم لا يعلمون شيئاً من الغيب، ولا تعلم إلا بما مِكَّنَها اللهُ تعالى منه.

ثم انتقلوا إلى الإخبار عن حالهم في شأن الصلاح والفساد، بأنهم منقسمون إلى قسمين، وأنهم فِرَق مختلفة، فليسوا على شأن واحد، فقالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴾ وهذا تعريف بحالهم. فَقد عَرَّفُوا بأن شأنهم في الصلاح والفساد قسمين: أحدهما: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ وهم المؤمنون، الطائعون لله تعالى. والفريق والقسم الثاني: ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ومنا تحت ذلك الصلاح، الذي هو الانحطاط. فدلالة ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ تفيد النزول، والانحطاط عن مستوى الصالحين، وهم أهل الفساد والكفر. فهذا هو التقسيم الرئيس لهم.

ثم أخبروا بالانقسامات الداخلية فيهم ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ ﴾ أي: مذاهب، ومشارب من الفرق، ووصفوا هذه الطرائق بدلالة معنى ﴿ قِدَدٗا ﴾ أي: أننا ضروباً وأجناساً مختلفة في الملل والأحزاب. وشَبَّهُوا تفرقهم بالْقِطَع، لأن مفرد ﴿ قِدَدٗا ﴾ قِدَّة. والْقِدَّة هي القطعة من الشيء. ليعطي البيان بذلك معنى التباين والتفرق في أحوالهم. مما يفيد مشابهتهم من حيث المشارب بجنس عالم الإنسان، فمنهم المسلمون، المؤمنون، الصالحون، ومنهم دون ذلك من أهل الكفر، والمتنوعون في مشاربهم ومللهم وأحزابهم.

وقد أوردوا الطرائق والقدد بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة في التنوع، وأنهم ليسوا على ملة واحدة. ومن دقائق البيان أيضاً، أنهم عمدوا أولاً إلى التقسيم الرئيس ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ فإما أهل صلاح، وهم أهل الإيمان والطاعة لله تعالى، وإما المناقضون للصلاح ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وهم الكفرة بجميع أنواع كفرهم. ثم التفصيل العام ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴾ أي: شتاتاً من المذاهب والفرق. مما يدل على كثرة وتنوع الأهواء عند الجن، فهم مماثلون للإنس في هذا الجانب.

ثم يقول هؤلاء المؤمنون من الجن الذين أسلموا ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ فإننا موقنون بأننا ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لن نستطيع أن نفوت على الله تعالى إذا أراد بنا أمراً. أي: فلا نستطيع أن نُعْجِز الله تعالى إن أراد بنا أي إرادة يريدها بنا. وكذلك ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ وكذلك لن نستطيع أن نمتنع عن ربنا تبارك وتعالى بالهروب عنه من الأرض. أي: أننا نعلم أن ربنا سبحانه وتعالى له كمال السلطة والقدرة والسلطان علينا. وبالتالي نحن مستسلمون لربنا تبارك وتعالى. بما يُعَلِّم غيرهم أن من حقائق الإيمان هو اليقين الجازم بأن الله تعالى إذا أراد بعبد أو ببعض عباده أو بجميع عباده شيئاً، فلن يحول بينه وبين مراده عَزَّ وجل أي حائل ومانع.

ثم يخبر هؤلاء المؤمنون من الجن بما كان منهم عندما سمعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ القرآن. فقالوا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ فإننا عندما سمعنا القرآن صَدَّقنا به، وأيقنا بأنه كلام ربنا عَزَّ وجل. وقد أسموه على حقيقته بأنه هدى ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ فعندما سمعنا الهدى. أي: القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ فصدقنا بأنه من عند الله تعالى، وبالتالي حققوا الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبجميع ما نزل من عند الله تعالى. وقد أفاد البيان الكريم سرعة استجابتهم للإيمان. حيث أفادت دلالة ﴿وَأَنَّا لَمَّا ﴾ السرعة في الاستجابة. أي: بمجرد استماعنا للقرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ فعندما سمعوا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلوه، آمنوا به بسرعة، فلم يتردد أحد منهم.

ثم يُقِرُّون بالنتيجة التي يحصل عليها من آمن ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ فإن مَن يؤمن، طائعاً لله تعالى ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا ﴾ أي: لا يخاف أن الله تعالى يُنقص له شيئاً من الثواب ﴿وَلَا رَهَقًا ﴾ ولا مكروها يحصل له من ربه جَلَّ جلاله، أي: لن تُزاد له في سيئاته، ولن تُنقص حسناته. لأن البخس يفيد النقص، والرَّهق يفيد الزيادة في العقوبة، وفي التكليف. بما يفيد دقة فهمهم وإدراكهم لكمال عدل الله تعالى، بأنه لا يؤاخذ عبداً بغير ما اكتسب، ولا يبخس أحداً في ثوابه. ولم يكلف عباده بما يرهقهم. وبالتالي فإنك أمام عدل الله تعالى، فكلما اجتهدت في الطاعة زادت منزلتك وثوابك، وارتفعت منزلتك في الجنة.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان إلى تعريف الجن بأحوالهم بعد سماعهم القرآن الكريم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ وأننا يا معشر الجن بعد استماعنا للقرآن، وإعلامنا وإخبارنا لقومنا بما سمعنا، قد انقسمنا إلى قسمين: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ ﴾ فمنا من أسلم واستسلم لله تعالى، ودخلنا في دين الله عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ وهم المتمردون الذين لم يقبلوا الإسلام. فإن دلالة ﴿ ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ تفيد الْجَوْر، أي: الجائرون، لأنهم عدلوا عما يجب عليهم من الدخول في الإسلام. فالقاسط هو الجائر، وأما المقسطون، ومفرده الْمُقْسِط فهو العادل إلى الحق. وهم بذلك مماثلون لجنس الإنسان، فمنهم من أسلم، ومنهم من كفر.

ثم أخبروا عن حال مَن أسلم لله تعالى، فقالوا ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي: فإن من أسلم لله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أي: قصدوا ونالوا الرشد، الذي هو المنهج السديد، وهو عين الحق الذي يبلغ بهم الهدى والنجاة والصلاح في الدنيا والآخرة. وفي هذا استدفاع لغيرهم بأن ينالوا الرشد بدخولهم الإسلام. فإن من دخل فيه فقد تحقق له الهدى والسلامة والغنيمة. وأما مَن زاغ عنه فقد تحقق له الغي والهلاك، والضلال والشرور في الدنيا والآخرة، بما يبين منزلة دين الله تعالى، وأن أهله هم الراشدون المهتدون الفائزون.

ثم أوردوا التعريف بحال من ترك الإسلام وبقي على كفره، فقالوا ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وأما الجائرون، الذين لم يقبلوا الحق ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي: فإنهم أصبحوا حطباً لجهنم في الآخرة، كالأخشاب التي هي حطب النار في الدنيا. مما يفيد أنهم قد علموا ذلك من القرآن. وأوردوا البيان بأن دخول الكفار إلى النار بمنزلة ومثابة الحطب للنار. أي: أنهم الوقود لجهنم التي تُوقد بها النار للاشتعال. وفي الإتيان بفعل ﴿ فَكَانُواْ ﴾ الذي أفاد زمن الماضي ما يبين ويظهر كمال وتأكيد التحقق. فقد تحقق فيهم. مما يفيد أن عذابهم مثل عذاب الإنسان، وأنه متحقق بدلالة ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ الذي يبين ويظهر كمال وتأكيد التحقق فيهم.

ثم يخبر الله تعالى بأن هؤلاء الذين كفروا، لو أنهم سلكوا طريق الحق بإسلامهم، لأنعم الله تعالى عليهم، ولكنهم اختاروا المعصية، وما يتبعه من العذاب، فقال عزَّ وجل ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ فلو أن الكفرة ﴿ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ أي: ساروا باستقامة ومتابعة ﴿ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ التي هي منهج الإسلام ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ لجعلناهم يتمتعون بالأرزاق، الذي أصله ﴿ مَّآءً غَدَقًا ﴾ أي: الماء النقي الكثير، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: الطاهر الكثير[1] فإنه بهذا الماء يحصل رغد العيش بالزروع، فيطعمون أنفسهم، ومواشيهم، وما ينجم عن ذلك من التجارة فيها، والتي يزداد بها النعيم من الخير.

ثم يذكر تبارك وتعالى السبب والعلة لذلك الإنعام، وهو للاختبار والامتحان ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ فإنعامنا عليهم لنختبرهم ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ ﴾ أي: لنختبر كيف شكرهم وامتثالهم وطاعتهم ﴿ فِيهِ ﴾ أي: في هذه النعمة. والفتنة هي: الاختبار، ليبتليهم بهذه النعمة، تمحيصاً لهم، حتى يظهر المطيع ممن أبطرته النعمة. مما يفيد أن النعمة واستمرارها هي ابتلاء واختبار لهذا الإنسان، وبالتالي عليه ألا يغتر بها، بل عليه أن يُدرك أنها محل اختبار له، كيف يتعامل معها. وفي هذا ما يفيد التنبيه لدلالات النعمة، وأن على من أنعم الله تعالى عليه من الأفراد والأمم أن يُحْسِنُوا في النعمة بالاستقامة فيها على منهج الله تعالى، وأن لا يبطروا، فَيُهلكهم الله تعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن حال من تُبطره النعمة، فقال تعالى ﴿ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ ﴾ فإن من يتولى ويُعرض عن ﴿ ذِكۡرِ رَبِّهِۦ ﴾ وهو القرآن، فلا يتمثل وينقاد به، فإن الله عَزَّ وجل ﴿ يَسۡلُكۡهُ ﴾ أي: يدخله ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي: عذاباً شاقاً متزايداً في علوه وشدته، بما يفيد المبالغة في قوته وعظمته. ليعطي بذلك الإنذار للعباد، بأن عليهم القيام بما يجب لله عَزَّ في علاه، لمن أراد السلامة والغنيمة. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يعلمهم، ويبين لهم الحق وطريق الهدى والسلامة والغنيمة، ويحذرهم، ويُنذرهم من الكفر وعموم المعاصي.

﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٣٥)

يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الأمر بتوحيده سبحانه وتعالى في عبادته، وعدم الإشراك به عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ فإن العبادة، ومواطن العبادة هي لله سبحانه وتعالى، فأخلصوا فيها لربكم وحده لا شريك له. وقد جمعت دلالة ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ جميع أماكن العبادة، وجميع العبادات، أي: كلما يتعبد الإنسان به وفيه لربه جَلَّ جلاله. فإن المساجد تُطلق على العبادة ذاتها، وتطلق على أماكنها، وعلى هيئتها. فقد ورد من أقوال العلماء: أنها: المساجد التي هي بيوت للصلوات، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وأنها الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبير، وابن الأنباري. فيكون المعنى: لا تسجدوا عليها لغيره عَزَّ وجل. وكذلك أنها البقاع كلها، قاله الحسن، فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها[1] فقد استوفت واستوعبت دلالة المساجد جميع ما يجب أن يتحقق فيه الإخلاص. وهذا من العمق البياني لدلالات القرآن الكريم، الذي تستوعب ألفاظه جميع مفردات المقصد، من غير حاجة إلى التفنيد المتكرر، والتعداد المتلاحق. مما يُظهر كمال الإعجاز البلاغي، وأنه كلام الله رب العالمين.

ثم بعد أن عين وحدد سبحانه وتعالى بأن المساجد له وحده لا شريك له، أعقب ذلك النهي عن الشرك ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ فلا تُشركوا معه عَزَّ وجل غيره في العبادة. فوحدوا الله تعالى في توجهكم ومرادكم من العبادة، بحيث تكون خالصة لله رب العالمين، وأخلصوا الدعاء والطلب لله تعالى. مما يبين أهمية الإخلاص في العبادة سواء في أماكنها، أو في نية أدائها، فلا يُشرك مع الله تعالى فيها أحد أبداً.

ومن تعظيم الله تعالى للمساجد بجميع دلالاتها ومعانيها أنه أضافها له جَلَّ جلاله، فقال تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ فإنها له وحده لا شريك له، فلا ينبغي أن تكون لغيره. أي: يجب قصرها وحصرها له تبارك وتعالى، وبالتالي فإن من أدخل معه غيره فيها، فإن الله تعالى لا يقبل تلك العبادة منه، لأنها مخالفة لأمره عَزَّ وجل. فإن قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ بيان وأمر قطعي، واجب التحقق من العبد لربه تبارك وتعالى، حتى يقبل منه عبادته.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٨/٨)

ثم يخبر الله تعالى بحال الجن الذين أسلموا وآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يتلو القرآن، ويتعبد الله تعالى به. حيث تكاثروا عليه صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ وأنه لِمَّا قام الرسول صلى الله عليه وسلم يتعبد الله تعالى بتلاوة القرآن العظيم ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ أوشكوا من تزاحمهم عليه صلى الله عليه وسلم أن يعتلوه ويَرْقوا فوقه عليه الصلاة والسلام، من شدة حبهم وإعجابهم بالقرآن العظيم.

وقد أفادت دلالة ﴿ لِبَدٗا ﴾ التلاصق والتراكم. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: يزدحمون عليه، متراكمين تعجباً[١] وقال جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: لِبَدا: جمع لبدة، كاللبد في ركوب بعضهم بعضاً، ازدحاماً، حرصاً على سماع القرآن[٢] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا القرآن، كادوا يَركَبُوه، من الحرص لَمَّا سمعوه يتلوا القرآن، ودنوا منه، فلم يعلم بهم، حتى أتاه الوحي، فجعل يُقرئه ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾[٣] مما يبين شغفهم وحبهم لما سمعوا من كلام الله تعالى. وبما يفيد إظهار ما يجب على الكفرة من الإنس بالتأسي بحال المؤمنين من الجن، فإن واجبكم أيها الناس الإقبال على دينكم، وعلى القرآن، فإن القلوب المؤمنة من الجن تتزاحم عليه. فأين أنتم من هذه النعمة الجليلة العظيمة؟

وهناك دلالة أخرى مغايرة. حيث قال قتادة رحمه الله تعالى: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله تعالى إلا أن ينصره، ويمضيه، ويُظهره على من ناوأه[٤] ورجح ابن جرير رحمه الله تعالى هذا القول. فقال: ذلك خبر من الله تعالى عن أن رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لما قام يدعوه، كادت العرب تكون عليه جميعاً، في إطفاء نور الله تعالى[٥] والمتأمل يجد أنه لا تعارض بين القولين. وبالتالي لا يمنع أنه حصل تزاحماً من الجن المؤمنين طاعة لله تعالى، وكذلك حصل ما هو ضده من الناس ومن الجن الذين هم أعداء هذا الدين. بما يدل على قوة سعة سياق القرآن العظيم، الذي استوعب هاتين الدلالتين. فهو مدح وثناء على قوة

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/٦٣٠)

(٢) جلال الدين، تفسير الجلالين، ص (٥٧٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٣٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٦١)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٤٥)

السياق القرآني في استيعابه لهذه المعطيات الدلالية، التي أظهرت تميزه في بيان أوجه الحال، وبسياق واحد. وذلك لقوة بلاغته المعجزة.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمكذبين والمنكرين، فقال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ قل يا أيها الرسول لهم ما توضح وتبين به حقيقة دعوتك، بأنها قائمة على توحيد الله تعالى، وإبطال ونفي الشريك، وعموم الشرك. فإنني لا أشرك بالله تعالى أحداً أبداً. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي ﴾ فإنما أدعو وأعبد الله فقط، لا شريك له. فلا أدعو غير الله تعالى. ثم بعد هذا القصر بحرف ﴿ إِنَّمَآ ﴾ الذي أفاد حصر وقصر قيام الدين على توحيد الله تعالى. يؤكد بعد ذلك أن هذا القصر بالنفي هو لكل ما يضاده، وهو القول بأني ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فيقرر لهم بأني لا أشرك مع الله تعالى أحداً. فليس للشرك مكاناً في عبادتي لله تعالى، فليست للأصنام مكاناً في عبادة الله تعالى.

وقد ورد البيان بقوة التوحيد وأهميته من خلال حصر الألوهية والعبودية لله وحده لا شريك له.

فإن دلالة ﴿ إِنَّمَآ ﴾ تفيد حصر قيام دعوته عليه الصلاة والسلام على توحيد الله تعالى. وإبطال الشرك. فليس فيها إلا الصواب من الحق؛ الذي هو حق لله تعالى. وأن هذا هو أصل وأساس في هذا الدين. بما يفيد بطلان معبوداتكم القائمة على الشرك.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يبينه ويقوله لهؤلاء المكذبين المنكرين لتوحيد الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بما يبين أنك لا تَدَّعي غير ما أمرك الله تعالى به ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ﴾ لا أملك ما أوقع به الضر عليكم، ولا أن أدفعه عنكم. بما يفيد أن الذي يملكه هو الله تعالى. وكذلك ﴿ وَلَا رَشَدًا ﴾ ولا أملك لكم ما أجلب لكم به النفع، وتحقيق الرشاد الذي هو ضد الغي، ولا أن أمنعه عنكم. وإنما الذي يملك ذلك هو الله تعالى. بما يفيد أنني عبد لله تعالى، لا أملك لكم ما يضركم ولا ما ينفعكم.

فمن دقائق البيان أن نفي الْمُلْكِ كان شاملاً ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ليستوعب ما كان متعلقاً بدفع الضر أو جلبه، أو بدفع الرشد أو جلبه. ليستوفي بذلك أوجه المنع، كما استوفى به أوجه الجلب والمنح والعطاء. وهذا من قوة بلاغة البيان الكريم. فجميعها عائدة لله تعالى. مما يبين لهم به صلى الله عليه وسلم أنه بشر مثلهم، غير أن الله تعالى اصطفاه على عباده بالرسالة العظيمة.

وكذلك يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم أيضاً: ولا يمنعني أحد من عذاب الله تعالى إن عصيته ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ وأخبر هؤلاء المشركين بأنه لا يجيرك ولا يمنعك من الله تعالى أحدٌ إن عصيته ﴿ لَن يُجِيرَنِي ﴾ أي: لن يمنع ويدفع عني ﴿ مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي: مِن مراد الله تعالى أي أحد. فإن عصيته لا يمنعني منه أحد سبحانه وتعالى ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ أي: لا أجد ملجأ ألجأ إليه. لن تجد من دون الله تعالى موئلاً تَئِلُ إليه، ومعدِلاً تعدِلُ عنه إليه، لأن قدرة الله محيطة بك، وبجميع خلقه[١] وهو تحذير في شخص النبي صلى الله عليه وسلم لكل من يعدل عن طاعة الله تعالى، ويتجه لغيره، فإنه بالتالي لن يجد من دون الله تعالى ملجأً يلجأ إليه، فيحفظه ويحميه ويقويه وينصره. وإذا كان هذا التوجيه والخطاب لنبيه ورسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإنه لغيره أعظم.

وبعد أن نفى الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم جانب الملك للضر والرشد لمن عصاه، يستثني ويخصص البيان بعد ذلك ما هو من مقدوره صلى الله عليه وسلم لغيره من الناس. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ إلا ما مكنني الله تعالى منه، وهو أن أُبلغكم ما كلفني ربي بتبليغه لكم ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ إلا أن أبلغكم ما بلغني به سبحانه وتعالى، وكذلك ﴿ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ التي أرسلني بها إليكم. وبما يفيد كذلك دلالة آخرى، وهو: أنه لا يمنعني من عقابه سبحانه وتعالى ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ إلا أن أقوم بواجبي الذي كلفني الله تعالى به. وهو قول المفسرين رحمهم الله تعالى أن في السياق دلالتين: قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فيه وجهان، ذكرهما الفراء[٢] وكذلك ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى هذين المعنيين: فعن المعنى الأول: إلا أن أبلغكم من الله تعالى ما أمرني بتبليغكم إياه. وعن المعنى الثاني: قال رحمه الله تعالى: وقد يحتمل ذلك معنى آخر: إني لن يجيرني من الله أحدٌ إن لم أبلغ رسالاته[٣] مما يبين قوة السياق في القرآن الكريم ليستوعب الأوجه من غير تضاد، ولا تعارض، فأحدهما لا ينفي الآخر. وهذه بلاغة إعجاز في القرآن العظيم. إذ تبين أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله أبداً، حتى ولو تعاضد جميع الإنس مع الجن.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٤/١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٠/٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٩/٢٣-٣٥٠)

ثم يخبر تبارك وتعالى بالنتيجة والمحصلة التي يحصل عليها من خالف الله تعالى، وخالف رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ فإن من يعصي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالكفر، فيمتنع عن دين الله تعالى الذي أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم فإن عقابه ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ فالجزاء له هو خلوده الأبدي في النار، لا ينفكون عنها، ولا ينقطع العذاب عنهم أبداً. وقد أفاد ودل الخلود الأبدي أن ذلك للكافرين. لأن المعاصي العامة التي تحدث من المؤمنين لا يكون عقابها بالخلود. قال السعدي رحمه الله تعالى: وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأُخَر الْمُحْكَمَة. وأما مجرد المعصية فإنه لا يُوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه سلف الأمة، وأئمة هذه الأمة[١] مما يبين أهمية الدقة في معرفة دلالات القرآن الكريم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن حال الكفرة من الإنس والجن عندما يعاينون ما وعدهم الله تعالى به يوم القيامة. فيقول عَزَّ وجل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ فحين يرون العذاب بأعينهم، فسيعلمون حينها علم اليقين بحقيقة المنهزم. فسيدركون من هو المنهزم الذي لا ناصر له ولا معين حينما يأتي ذلك اليوم. فلما أن الكفار في الدنيا يستبعدون يوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب والجزاء، فإنهم سيعلمون يوم القيامة علم اليقين بصدق ما كانوا يُوعَدُون به ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ فسيعلمون علم اليقين أيهم المنهزم الذي لا ناصر له، ولا معين ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا ﴾ وكذلك أيهم أقل جنداً وقوة ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ وهو استفهام تَوَعُّد وترهيب. وكذلك هو استفهام تقريري بما سيكون. لإفادة التحذير من ذلك اليوم، واغتنام فرصة الحياة الدنيا. وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بالعباد، إذ يحذرهم ويزجرهم، ويبين لهم حقائق الآخرة. فنحمد الله سبحانه وتعالى على فضله وامتنانه.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٢١)

ثم يزداد التحذير والنصح بتجهيلهم ذلك الموعد ليوم القيامة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين: لا أدري ولا أعلم عن موعد هذا العذب الذي تُوعدون به، أهو قريب؟ أو أن يجعل الله تعالى له غاية ومدة؟ وذلك إجابة لسؤالهم الذي يتكرر عن زمن وموعد هذا العذاب الذي تنذرنا به. فأجابهم بأسلوب التجهيل لكل أحد عن معرفة هذا الموعد، فإن العالم به فقط هو لله تعالى وحده لا شريك له.

ولذلك ورد البيان بصيغة الاستفهام. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والجملة صلة الموصول، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء[١] فهو استفهام تقريري، يقرر به لهم أن عِلم موعد العذاب هو عند الله تعالى فقط. ليشمل عذاب الدنيا، وعذاب يوم القيامة. وبما يفيد أنه جواب لسؤالهم الْمُقدر الذي ورد ذكره في آيات القرآن. ومن ذلك ما ورد في سورة الإسراء ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فقد يكون قريباً، وقد يكون بعد زمن مُقَدَّر ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ احتمال يشد عقولهم نحو الانتظار المملوء بالخوف والترقب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴾ وقد يكون له أمد وزمن مُقَدَّر، لا يعلمه إلا الله تعالى. وفي هذا تجهيل لهم ولكل أحد عن مدة الأمد. الذي هو الزمن والغاية. ليعطي المزيد من التخويف والإنذار. فإن لله تعالى الحكمة البالغة في إخفائه.

ثم يعلل لهم سبب عدم علمه، بأن الله تعالى هو العالم بكل شيء، وأنه من عزته وعظيم سلطانه أخفى غيبه عن عباده. فقال تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فإن الله تعالى هو لا غيره ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ كما أنه عَزَّ وجل قد استأثر بذلك ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فلا يبين ولا يُمَكِّن أحداً من علمه. لما فيه من المصالح التي لا يعلمها إلا الله عَزَّ وجل. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ حصر علم الغيب له عَزَّ وجل. بما يبين ويكشف به ضلال من قصر العلم فقط على الْمُشَاهَد من المخلوقات، بالرغم من أن علم المشاهدة يتحقق به الإيمان بالغيب.

كما أن في قوله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ بيانٌ لسعة وكمال علمه تبارك وتعالى، حتى ما يتستر به البعض عن غيرهم، فهو غيب عليهم، ولكن الله تعالى به عليم. فهو سبحانه وتعالى العَالِمُ بما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وكذلك ما غاب من تدبيره عنهم في هذا الكون العظيم، ومما سيكون قبل أن

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣١٠/٥)

يكون، وما غاب عن بعضهم دون بعض؛ مما يتخفون به عن بعضهم البعض، ومن ذلك ما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تُكِنُّه الصدور. فلا يغيب ولا يستتر عليه شيء من الخلق أبداً سبحانه وتعالى. فلا ظُلْمَةٌ تمنع، ولا سِترٌ يحول دون علم الله تعالى، فلا شيء يحول دون علمه جَلَّ شأنه.

وكذلك من فوائد دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ **عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ** ﴾ ما يربط ويُظهر ويبين العلاقة الوطيدة والمتلازمة بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة. فمن يؤمن بالشواهد من خلق الله تعالى وتدبيره فإنه يلزمه الإيمان بالغيب الذي دلت عليه شواهد قدرة الله تعالى، كإنبات الأرض بعد موتها، وحركة الكون وثبوته، وجميع ما فيه من المخلوقات المتحركة والثابتة.

وفي الإيمان بذلك ما يغرس التقوى في المؤمن، ومراقبة الله تعالى في النفس. فتكون حياته بين الخوف والرجاء، وهما الأمران الجالبان للسعادة، والضابطان لسلوك الإنسان في كل أوقاته واختلاف أحواله. فالإيمان بالغيب هو الطريق للهداية والاستقامة، ثم إلى جنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض. ونسأل الله تعالى الجنة لنا ولجميع المسلمين بفضله ورحمته وتوفيقه.

ثم يستثني سبحانه وتعالى من كامل الاستئثار بالغيب من خصهم بشيء منه، فقال تعالى ﴿ **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا** ﴾ فالغيب كله لله تعالى، فلا يُظهر سبحانه وتعالى على غيبه أحداً إلا ما اقتضت حكمته أن يخبره بشيء منه، لِمَا فيه من المصلحة والحكمة التي يعلمها الله تعالى بإعلامه به. وقد خص به الرُّسُل، فقال تعالى ﴿ **إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ إلا بما يرتضيه لكل أحد منهم، فيكون مناسباً له، ولواقع الحال لذلك الرسول عليهم جميعاً الصلاة والسلام. مما يفيد أن المرسلين إذا أخبروا بخبر من شأن الغيب فإنهم صادقون فيما قالوا. لأنه بوحي من الله تعالى. مما يبين مكانة المرسلين عليهم الصلاة والسلام عند ربهم، فيخصهم بما لا يخص به أحداً من عِلم الغيب.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ **فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا** ﴾ فإن الله تعالى يُرسل من بين أيديهم ومن خلفهم حرساً وحفظة يحفظونهم. أي: فإن الله تعالى يختصهم بمن يحفظهم، ويحفظ ما أوحاه الله تعالى إليهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة، يحفظونه من أمر الله تعالى، ويساوقونه على ما معه من وحي الله تعالى. ولهذا قال عَزَّ وجل ﴿ **لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا** ﴾[١] فإن من حِفْظِ الله تعالى لهم أنه عَزَّ وجل يُرسل من بين

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٢/٤)

أيديهم ومن خلفهم حرساً وحفظة يحفظونهم. مما يبين قوة وشدة عناية الله تعالى بهم. وأنه جَلَّ جلاله إذا حفظ أحداً منع عنه غيره بقوته وسلطانه، وجبروته. بما يثير في المؤمن قوة التوكل على الله تعالى.

ومن دقائق البيان التعبير بالسلك الذي يفيد قوة القدرة على تحقيق المراد ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأُطلِق السَّلك على الإيصال المباشر، تشبيهاً له بالدخول في الشيء، بحيث لا مصرف له عنه[1] مما يبين عظمة قدرة الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن علة وسبب حفظهم والعناية بهم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ ليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرُّسل قد بَلَّغوا عن الله تعالى، وأن الملائكة حفظتهم، ودفعت عنهم.

ومن رحابة السياق الكريم أنه استوعب واستوفى خمسة أقوال: ذكرها أهل التفسير. فقيل: أحدها: ليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرسل قَبلَه قد أبْلَغَت عن ربها ﴿ قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾. وأن الله تعالى قد حفظها، فدفع عنها. قاله قتادة رحمه الله تعالى. والثاني: ليعلم محمدٌ أن قد بَلَّغت الملائكة رسالات ربهم. فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: وما نزل جبريل بشيء من الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة. والثالث: ليعلم مكذبوا الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. قاله مجاهد. والرابع: ليعلم الله عَزَّ وجل ذلك موجوداً ظاهراً، يجب به الثواب، فهو كقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ قاله: ابن قتيبة. والخامس: ليعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن الرسل قد أتته، ولم تصل إلى غيره. ذكره الزجاج[2] وفي هذه الأقوال المتظافرة، غير المتعارضة فيما بينها، ما يوضح ويبين قوة بلاغة تراكيب كلمات القرآن وسياقاته العظيمة التي استوفت كامل المراد، مع تعدد الأوجه، بما يؤكد ويبين عظمة كلام الله تعالى، الذي أظهره في كتابه العظيم الحكيم، ومن غير حاجة لتكرار ذلك بسياقات متعددة، حتى تستوفي المراد. فإن البلاغة هي الإيجاز من غير عجز في استيفاء المراد. فسبحان من أعجز عباده بجميع سياقات آيات كتابه القرآن العظيم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال إحاطته، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ أي: أحاط علمه عَزَّ وجل بجميع ما لدى الرسل، من تبليغ غيرهم، بل ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ أي: أن

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢١٤/١٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٠/٨) وذكر ابن جرير ثلاثة منها (٣٥٤/٢٣-٣٥٥)

مِن دقة علمه جَلَّ جلاله أنه أحصى عدد كل شيء. وقد أفادت دلالة الإحاطة ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ كمال الاستيفاء، الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك. فبالرغم من الكثرة والتنوع إلا أنه عَزَّ في علاه قد أحصاه عدداً وعلماً ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ أي: إلى درجة المبالغة التي وصلت حتى إلى تعداده.

ومن بلاغة البيان عن كمال الإحاطة الربانية أن أظهرها عَزَّ وجل أولاً بالتخصيص: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي: أحاط بالرسل إحاطة علم وقدرة. بما يفيد كمال العلم بما كان منهم. ثم أورد بعد التخصيص كمال التعميم: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ التي استوفت كل شيء في الكون، ومن ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي ذكر الإحاطة بالإحصاء ما يفيد كمال الدقة المتناهية، التي بلغت إلى حد ودرجة الإحصاء. فمن ذلك أنه سبحانه يعلم عدد ما ذكره الذاكر من العباد، وكم مشى من خطوات إلى الصلاة، وكم عدد تسبيحه وتحميده، وتكبيره، وتهليله لله تعالى. فإن علم الله تعالى متعاظم في كمال الإحاطة الدقيقة والاستيفاء. فسبحان مَن وسع عِلْمُهُ وقدرته كل شيء. فإن مَن عَرَف وعَبَد الله تعالى بهذا العلم؛ فقد انضبطت حركته، وتعامله، وأقواله، وأفعاله، وأخلاقه. مما يبين أهمية العلم بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الجن. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.